

(ورد.. في أدعية الهم والحزن)

الورد الخامس

في ثانيا سورة الأنبياء، يسطع مشهدٌ من أعظم مشاهد الرجاء، يُروى فيه حال نبيِّ ابْتُلِيَ فألهمه الله الذكر، ونجّاه بصدق التوحيد: يونس عليه السلام في الظلمات ينادي، والرحمن الرحيم يُجيب: **«وَدَا النُّونُ إِذْ ذَّهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»** [الأنبياء: ٨٧] فما كُرب نبيٍّ من الأنبياء إلا وكان في تسبيحه نجاته، وما خالطت أنفاس المكروب ذكرَ الله وتسبيحه؛ إلا وتبدّل كربُه فرجًا، وهَمُّه أَمْنًا، وغمه سَكِينَةً.

ويونس عليه السلام لما اشتد عليه الغم طفق يُسَبِّح رَبَّهُ، يناجيه بقلْبٍ كسيرٍ، بندا الموحدين: **(لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)** فانظر كيف جمع هذا الذكر المبارك بين: توحيدٍ خالص، وتنزيهٍ لله، واعترافٍ بالذنب؛ فنال به صاحبه الفرج من الغم، وكان سَنَةً للمؤمنين من بعده كلما نزل بهم كربٌ، أن يُكثروا من هذا الذكر العظيم؛ فإن فيه مفاتيح الفرج، ومنازل العبودية، وأنوار الرجاء.

(ورد.. في أدعية الهم والحزن)

هذه هي دعوة ذي النون عليه السلام، وهي دعوة كلِّ عبدٍ مكروبٍ إذا نزل به الغم، وضاق به السبل، واشتدَّت عليه الظلمات.. وقد قرن الله بها وعدًا عظيمًا، وبشارةً كريمة، لكل مؤمنٍ صدّق في توحيده، وأخلص في لجوئه أن يُنَجِّيه كما نجا يونس، ويكشف ما به كما كُشف عنه، فقال جلّ شأنه: **< وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ >**. وقد تضمن هذا الدعاء الجليل معاني من أعظم أصول التوحيد، ففيه كمال الإقرار بوحداية الله تعالى، وتنزيهه عن كل نقص، واعتراف العبد بجنايته وظلمه لنفسه، فاجتمعت فيه أصول النجاة من كل كرب: التوحيد، والتسبيح، والانكسار.

فالعبد إذ يقول في غمرة كربِه: **(لا إله إلا أنت)** يُعلن توحيد الله، وأنه لا معبود بحق سواه، ولا يُرجى الفرج إلا من بين يديه، ثم يقول: **(سبحانك)** يُنَزِّهه عن كل ما لا يليق بجلاله، ويُقرّ أن ما نزل به من بلاء، فبعده وحكمته، لا ظلم فيه ولا زيادة.

ليختم باعترافٍ يُذيب ما بقي من كبرياء النفس: **(إني كنت من الظالمين)** وهو مقام التذلل، وذروة الانكسار الذي يحبه الله، ويُكرم صاحبه برفع البلاء، وإبداله أَمْنًا وسَكِينَةً.

ففي هذا الذكر المبارك إثباتٌ لكل كمالٍ لله، وتنزيهٌ له عن كل نقص، وفيه إظهار العبودية التامة من العبد، وانكساره بين يدي مولاه، فلا عجب أن يكون من أعظم الأدوية التي تُذهب الهم، وتُفرِّج الكرب، وتُقضى بها الحوائج.

(ورد.. في أدعية الهم والحزن)

يأتي إقرار العبد بظلمه وتقصيره وتفريطه منيباً في ذلك إلى ربه طالباً عفوه ومغفرته، مستغنياً به في إصلاح شأنه وإزالة كربه فيقول: **(إني كنت من الظالمين)**. والعباد كلهم واقعون في التقصير والظلم ولابد، ولم يسلم من ذلك أحد، وليس لأحد أن يُبرئ نفسه عن هذا الوصف **(إني كنت من الظالمين)** لاسيما في مقام مُناجاة الله تبارك وتعالى، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "فمن ظن أنه خير من يونس؛ بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه، فهو كاذب".

واعتراف العبد لله عز وجل بالظلم يتضمن إيمانه بالشرع والثواب والعقاب، لأن هذا الظلم الصادر منه يعدّ خروجاً منه عن الشرع، وهو يعلم أن ظلمه سبباً للعقوبة، وأنه موجب لانكساره ورجوعه إلى الله واستقالته عثرته، والاعتراف بعبوديته، وافتقاره إلى ربه. ولما كان هذا الدعاء يتضمن توسل العبد إلى الله تعالى بالتوحيد والتنزيه والعبودية والاعتراف، قويل العبد على ذلك بأن يزيل الله عنه كل هم!

تأمل كيف أنجى الله عز وجل نبيه يونس عليه السلام بهذه الدعوة، وفرج عنه كربته، وكذلك الله ينجي عباده وأوليائه من كربات الدنيا والآخرة، ويدفع عنهم الشدائد بهذه الطريقة! بتمام توحيده والتضرع إليه والتذلل بين يديه، واعلم.. أنه لا يُلقى في الكروب العظام إلا الشرك، ولا يُنجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليفة، وملجؤها، وحصنها، وغياثها.

ولذلك كانت دعوة يونس عليه السلام التي ما دعا بها مكروباً إلا فرّج الله كربته. فما أشد حاجتنا إلى أن نُملاً قلوبنا بتوحيد الله تعالى، وأن نُعنى بصلاح قلوبنا وتحقيق الإخلاص الذي يحبه ربنا؛ حتى نسلم من كل غم، ونزول عنا سحائب الشدائد والكروب التي تغشى القلوب.